

التكفير حيلة فقهية لاكتساب شرعية سياسية

خطاب يوظفه أصحاب السلطة لإقصاء الخصوم

تستدعي الأصولية الإسلامية في مراحل تاريخية معينة ولغايات مصلحة سياسية أو دينية مفاهيم وتأويلات فقهية، مفارقة وخارج سياقاتها الزمانية والمكانية كآلية أيديولوجية للفرز والتصنيف والاستبعاد والتقريب. ولعل مسألة التكفير مثال على الاستخدامات المشوهة لمفاهيم وردت ضمن سياقات محددة في النص الديني من قبل الإسلاميين من أجل غايات سلطوية بحتة. وفي هذا السياق يرصد الباحث التونسي عمار بن حمودة ضمن كتابه "التكفير في الخطاب الإسلامي القديم" نشأة المفهوم تاريخياً ويكشف آليات التلاعب والتحويلات الكبرى التي شهدتها.

وشهدت تلك الفترة عنفا رمزياً قام على قانون المحاكاة. وتحول في الكثير من فصوله إلى عنف مادي وحروب استنزاف بين المسلمين أنفسهم. وانتهت تلك الفترة باحتكار الخوارج التكفير وتقنينه، وهو ما جعلهم يُتهمون بالغلو، ويدانون بسوء توظيف الدين.

ومع تقدم بناء الدولة الإسلامية تطور الخطاب التكفيري وصار يفتن في إطار علم الكلام، وظهر نمطان من أنماط الخطاب: الأول تمثل في ظهور كتب الفرق التي اعتمد أصحابها التكفير وسبيلة للفرز العقائدي وانتقاء عقائد الفرق الأخرى المنافسة على الشرعية الدينية. واعتمد هذا النمط التكفير على بناء هرمي ذي طابع سلطوي، ارتبط بنسق مترابط العناصر تكاملت فيه مساعي اللغويين إلى تقنين اللغة، مع إجماع الفقهاء على قواعد مشتركة للفقوس والشعائر والإعتقادات، ونمط محدد للفصاحة؛ فحركة التدوين أثرت في ظاهرة التكفير، ورسمت قوانين الإيمان الصحيح، وابتعدت من دوافعها كل تاويل تراه فاسداً ومارقا.

النمط الثاني اتسم بإدانة فريدة تقوم على محاسبة عقيدة للمارقيين من الملة، والواقعين في شبر التأويل الفاسد. وكانت التهمة الرئيسية الموجهة إلى هؤلاء الخصوم هي الإلحاد؛ وهو مفهوم مركزي يقوم على ظاهرة التكفير باعتبارها تستعيد ذهنياً مفهوم الخلع والطرد والإبعاد في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام؛ فالمدان بالإلحاد خلع وطريد، عقائده فاسدة ومصيره الموت.

واكد بن حمودة أن التكفير ظاهرة تاريخية اعتمدها أصحابها لفرض سلطتهم الرمزية على الآخرين، موظفين قوة المقدس الذي مكنتهم من أن يجعلوا لأرائهم رافداً سماوياً وحكما إلهياً لا اعتراض عليه.

لذلك، كان التكفير سلطة رمزية من أجل فرض الشرعية؛ وهو خطاب يعتمد البات أيديولوجية للفرز والتصنيف، قد يقوي السلطتين الدينية والسياسية، ولكنه يمكن أن يتحول إلى البتة تفكيك وتفريق؛ إذ أن الأطراف المتنازعة على الشرعية يمكن أن توظف التكفير

محمد الحامصني
كاتب مصري

القاهرة - تعد الفترة النبوية اللحظة المرجعية التي تأسست فيها ثنائية الكفر والإيمان، لذلك شكّلت مقصد الباحث التونسي عمار بن حمودة في تتبع مفهوم التكفير في مفاصله التاريخية الكبرى انطلاقاً من لحظة وفاة الرسول ومرحلة الردة والفتنة ووصولاً إلى تدوين التكفير في كتب الفرق والردود على الملحدين والكافرين، ونشأة علم الكلام وظهور الفرق، حيث كانت كتب الفرق مدونة خصبة لفهم ظاهرة التكفير وتحديد ألياتها. وهو ما سعى لرصده في كتابه "التكفير في الخطاب الإسلامي القديم"، الذي تضمن كشفاً للتحويلات الكبرى التي شهدتها مفهوم التكفير.

تأسيس الخطاب التكفيري

انطلق الباحث التونسي في رصد البدايات الأولى التي شهدت بزوغ الخطاب التكفيري من مرحلة صدر الإسلام التي تأثر فيها الخطاب الديني الجديد بصراعات النبي وجماعته مع أعدائهم وخصومهم في مكة أو المدينة أو في سائر القبائل. كان مؤشراً توتراً هذا الخطاب بعلو ويخفت وفق الأحلاف الدينية والسياسية التي تتشكل أو تختلف.

التكفير ظاهرة تاريخية اعتمدها أصحابها لفرض سلطتهم على الآخرين، بتوظيف قوة المقدس الذي لا اعتراض عليه

وفي تلك المرحلة، لعب النبي محمد دوراً هاماً في تلطيف حدة الخطاب. لكن بعد وفاته، بدأت الأوضاع تتخذ منحى مختلفاً مع دخولها مرحلة الصراع السياسي على الشرعية، وهي المرحلة التي وظف فيها الخصوم السياسيون التكفير سلاحاً لاحتكار الشرعية، وحاولوا سلبها من خصومهم.



مغلاة تدنس المقدس

السياسي الناشئ وحمايته من الارتداد إلى وضعية التفرق القبلي". لافتاً إلى أن اتخاذ التكفير مبرراً للحرب قد كان سبباً مباشراً في نشأة المركزية القرشبية التي جعلت من القرار السياسي في يد القبيلة الأقوى. وهو ما سيحجز من إخماد حركة الردة مجرد فصل من فصول الصراع على السلطة، تتجدد جولاته في الفتنة التي كشفت أن أزمة المركزية القرشبية ستظل سبباً رئيساً في اندلاع حرب يسعها فيها كل طرف إلى إثبات شرعيته السياسية والدينية.

وذكر بن حمودة أن الطابع الخبوي للتكفير لم يمنع وجود صلات بين البنية التي قام عليها الخطاب التكفيري في إطار علم الكلام وسائر أنواع الخطاب مثل خطاب السانيس أو المؤرخ أو الفقيه، حيث سعت المنظومة الفقهية إلى إيجاد فصل عقدي بين الحرام والحلال حرام، وفق هذا المسار؛ وهو منطلق ديني له انعكاسات سياسية؛ لأنه يهب الشرعية لتفريق من الناس ويسلبها من الفريق الذي يواجهه. وأوضح بن حمودة أن "التكفير كان آلية سلطوية ناجعة لتبرير الحرب وإضفاء طابع القداسة عليها. وهو الذي ساهم في الحفاظ على الكيان

شروطاً محددة لضمان الانتماء إلى الفرقة الناجية. كان التكفير وسيلة صراع على السلطة والية لاكتساب شرعية الحرب، ومبرراً قانونياً للخصاص من الفئات الأخرى. فليس ثمة في التاريخ الإسلامي مسوغ للحرب عند المسلمين أكبر قيمة من الكفر؛ ولذلك ارتبط بالجهاد.

وقد أسس هذا المفهوم ثنائيات أساسها النظري قائم على التكفير؛ فهو يقسم البشر إلى مؤمنين يقاقلون في حرب شرعية مال أصحابها الجنة، وكافرين حربهم فاقدة للشرعية ومالههم الجحيم، ويقسم الأرض إلى دار إسلام ودار كفر. ولذلك قتل الكافر حلال، وقتل المؤمن حرام، وفق هذا المسار؛ وهو منطلق ديني له انعكاسات سياسية؛ لأنه يهب الشرعية لتفريق من الناس ويسلبها من الفريق الذي يواجهه.

وأوضح بن حمودة أن "التكفير كان آلية سلطوية ناجعة لتبرير الحرب وإضفاء طابع القداسة عليها. وهو الذي ساهم في الحفاظ على الكيان

معها بقتلها وصلبها. لذلك، ينتظم هذا الخطاب في حلقة ثلاثية محورها السلطة وأضلاعها الكفر والشرعية والعنف.

ولفت بن حمودة إلى أن التكفير يعبر عن الثنائية الدينية المعروفة بالإيمان والكفر. وإذا كان قد وظف في مرحلة أولى في الصراع السياسي على منصب الخلافة، فإنه قد تحول إلى مقولة في علم الكلام مكنت الفرق المتنازعة من وسيلة للدفاع عن شرعيتها فضلاً عن أنها منحت المفكرين سلطة علمية للرد على خصومهم.

وقال الباحث المختص في الحضارة الإسلامية "لقد حاول علماء الكلام، على مدى العصور في مختلف المذاهب والفرق الإسلامية، أن يؤسسوا إلزامية أحكامهم التكفيرية وتحويلها إلى قانون يضمن البات فرز تفصل بين المؤمنين والكافرين، أو ما عبروا عنه بثنائية النجاة والهلاك"، واعتبر بن حمودة أنهم نجحوا في ذلك لأنهم أوهموا مخاطبيهم بأن أحكامهم التكفيرية إلهية المصدر، فقدموا تصوراً للذات الإلهية وللقرآن والنبوة، وضبطوا

لتقضي المختلفين عنها والمعارضين لها، وذلك من خلال إيجاد تبريرات دينية لخلافات سياسية.

احتكار التأويل

هذا الخطاب لا يحرم الفرق الأخرى من حقها في التأويل المختلف فحسب، وإنما يحرمها أيضاً من حق المشاركة السياسية. ومظالم هيمن موقف رسمي جعل الخلافة في قريش، فرضت لغة للهجاء الأخرى من القراءات الرسمية للقرآن، ويفضي على حق القبائل الأخرى في الانتماء للسانسي وقدااسة اللغة القرآنية.

فضلا عن ذلك، صار فريق من المتشبهين بالمنظومة الرسمية للعقيدة الإسلامية يفرضون لونها واحداً من الأيمان يختزل تصورات فرقة محددة للذات الإلهية والخطاب القرآني، ويضع الباقي في خانة الكفر. والتكفير يقيم حساباً دينياً قبل حساب الأخرى؛ وهو لا يكتفي بالأحكام التي تدين الجماعات والأفراد بالكفر والإلحاد، وإنما يشرع لاستعمال العنف



مشاركتها، كما كتب، السكري وعسكرية وعبدالحمد، مؤسسو الصحافة الخيرية. وعن السمني، سيتجاهل بائر رجعي أنه عائد وقتها من الحجاز حيث "إخوان من أطاع الله" ونشاطه في "الإخوان الحصافية" مرهقا لسنوات، وسيخلق قصة تقطع صلته بهما "نحن إخوة في خدمة الإسلام، فنحن إذن الإخوان المسلمون"، كانه ابتكر مفردة "الإخوان" في لحظتها!

سواء كان السكري هو مؤسس الجماعة، قبل تقديمه للبناء، أو رفيق درب لمرشدنا الأول، ففوقنا تاريخ الجماعة تقول إنها ولدت اسما وفكرة وبناءين

من رحم «الإخوان الحصافية» و«الصحافية الخيرية»

سيحضر مؤسسو الصحافة الخيرية في أول مكتب لإرشاد الجمعية القديمة الجديدة، وسيكون السكري أول

وكيل عام لها، متولياً "الإشراف التام على النواحي الإدارية والعملية" حسب قرار تنظيمي للمرشد. ويقول محمود عبدالحليم إن البناء اختاره "سفيرا في مقابلة المسؤولين من رجال الدولة ورؤساء الدول العربية ورجال القصر وساسة البلاد".

يوصف عبدالحليم بـ"مؤرخ الجماعة"، ويلاحظ الباحث سامح فوزي أنه الأكثر توسعا بين من عاشوا صدام السكري مع البناء استعراضاً له، مع ذكر إيجابيات عديدة لأول وكيل للجماعة. غير أنه يحنان تماماً للبناء، حتى يبرر مرحلة "الصحافية" بقوله "لما كان الأستاذ أحمد بكير البنا سنا، وكان طالبا صغيرا ويعمل بالتجارة فكان طبيعياً أن يكون في التكوينات الإدارية رئيساً، والطالب الصغير سكرتيراً".

وضع البناء، الذي بالكاد تجاوز الثالثة عشرة وقتها ويمهد رفض أن يقبله، بداية، لصغر سنه، في ميزان القسمة مع تاجر سبقه في النشاط بسنوات ومن أسرة ميسورة؛

تبرير يناقض منطق الأمور، ولم يقتنع باحثون كثر ممن تقبوا في تاريخ الجماعة، منهم.. الكويتي محمد صالح السبتي، في كتابه "الإخوان المسلمون.. فضائحهم باقلامهم" والسعودي نايف محمد العساكر في كتابه "موسوعة حركات الإسلام السياسي.. الإخوان

المسلمين". وعبدالحليم على في "الإخوان المسلمين.. قراءة في الملفات السرية"، وثروت الخرباوي، القيادي السابق بالجماعة، الذي ينسب في كتابه "سر المعبود" لعصام العريان أن الجماعة نجحت في حرق مذكرات السكري.

يتغافل القطاع الغالب من الإخوان عن أن جماعتهم هي ابنة لأخرى رعت مؤسسهم قبل أن ينسل منها بعدما "ارتفع نجمه"، أو تناقضت مسيرته مع هدف الجماعة الأولى. وبينهم يظل محمود عبدالحليم الأقل تشويها للسكري. فمن قرأ مؤلفات رفاق البناء سيصدمه حجم القسوة على السكري، رغم أنه على الأقل شارك في تأسيس جماعتهم، مقارنة بموقفهم من سبب الشقاق الذي طالب السكري بـ"تطهير" الجماعة منه.. عبدالحكيم عابدين، زوج شقيقة البناء والذي خلف السكري في الوكالة، ("طريق رمضان على درب راسبوتين الإخوان"، العرب الأربعاء 16 أكتوبر 2019).

سواء كان السكري هو مؤسس الجماعة، قبل تقديمه للبناء بدلا منه، أو اقتسم تأسيسها، أو رفيق درب لمرشدنا الأول، ففوقنا تاريخ الجماعة تقول إنها ولدت اسما وفكرة وبناءين من رحم "الإخوان الحصافية" و"الصحافية الخيرية".

الصحافية.. من هنا بدأ الإخوان

سكرتيرا لها، ربما لعدم تفرغه التام هو وزميله في تأسيسها حامد عسكرية وعلي عبدي.

في ما بعد، حين يكبر الطفل سيكتب عن الجمعية في "مذكرات الدعوة والدعوة" قائلا "كافحت الجمعية في سبيل رسالتها مشكورة وخلفتها في هذا الكفاح جمعية الإخوان المسلمين".

وبعدما "كان عهد أن يعمل كل منا لهده الغاية". ويفصل "كان السكري بالمحمودية وعسكرية بالقرآزيق

وأحمد عبدالحمد بكفر الدوار، وكنت بالإسمايلية. وبطريقة ما كان حسن البنا هو من بنى أول علاقات مؤثرة سواء كسكرتير لجمعية الصحافية الخيرية، أو لاشتقاق عنها يخطط له، حين التقى مرات الملك عبدالعزيز بن سعود والمعتمد الأميركي ليديه. وعاد من الحجاز عام 1928 ليكون العام الفارق في مسيرة الإسلام السياسي".

يعتم على سنوات الجمعية الأم ويروي في مذكراته أن اللجنة الأولى ولدت في مارس من ذات العام، ذكرا أسماء مجموعة حرفيين كشركاء تأسيس للجماعة، وطبيعي، حينئذ، أن يتقدمهم المدرس "مرشدا".

ويستطرد السكري "وليت وجهي شطر الإخوان ممن جمعني وإياهم عهد الطلب واللود والواجب، فوجدت استعدادا حسنا". كان أسرعهم إلى

كلامه كانه موسيقى.. صاحب قوام فارح، وسمت جميل، وهندام جذاب، كانك أمام أحد أبناء الأرستقراطية"، و"تقافته واسعة، وعقليته ناضجة، وأفقه فسيح، وغيرته على الإسلام نابعة من قلب عامر". (عن كتاب الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ).

والسكري والبنا كلاهما ولد في مدينة المحمودية بمديرية البحيرة، الأول عام 1901 والثاني 14 أكتوبر 1906. ووفق مذكرات البنا فقد تعرف على السكري وهو لم يكمل 14 عاما. كان السكري، وقتها، ناشطا في الطريقة الحصافية الشاذلية وجمعية الإخوان الحصافية، ذراع الطريقة الخيرية.

البيدهي أن يأخذ الشاب التاجر، بيد الطفل التلميذ، وهذا ما حدث، وفق روايتهما معا، حتى نقطة التصادم. عرفه بشيخ الطريقة، عبد الوهاب الحصافي، وزكاه للجمعية الأم، الإخوان الحصافية. غير أن هذه الجمعية، لطبيعتها المتصوفة، لم تكن معنية بتقويم سلوك الآخرين، أو بمواجهة أنشطة خيرية

مسيحية مثل "التطبيب وتعليم التظريف وإيواء الصبية من بنين وبنات"، اعتبرها البنا في مذكراته "تبشيرا". أسس الشاب التاجر، ابن الأسرة الميسورة، جمعية الصحافية الخيرية

المستقلة "للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، عام 1920، واختار الطفل

محمد طعيمة
كاتب مصري

"أردت أن تبشأ بابيخ الذي عاش مئذ أكثر من ربع قرن.. عرك بالمحمودية يافعا لم تتجاوز الرابعة عشرة وهو في العشرين، واستعان بك في الدعوة المباركة، حتى إذا ما صلب عودك واتممت دراساتك وزاولت عمك بالإسمايلية وأنشأت بها شعبة أخرى، وفتحت لكما القلوب وتعددت فروع الجماعة، أترك على نفسه، وبابيك على الرياسة وطلب إلى الناس أن يبايعوك حتى ارتفع نجمك"، كلمات خاطب بها أحمد السكري، أول وكيل عام لجماعة الإخوان، حسن البناء، على صفحات "صوت الأمة" في 11 أكتوبر 1947، بعد تلقيه خطابين، الأول "تنظيمي" من البنا/المرشد يبلغه أنه "نظرا للظروفم الصحية والشخصية، وبناء على تقويض الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين، رأيت إغفامكم من عضوية الجماعة". والثاني "شخصي" يرجوه فيه أن يتقدم باستقالته. ونشر الخطابين عبدالحليم على في كتابه "الإخوان المسلمين - قراءة في الملفات السرية". كان السكري، وفق محمود عبدالحليم، وهو قبدي إخواني من رعيها الأول، "خطيبا ذا حنجره ذهبية،